# في تفسير الكتاب المقدّس، الجزء الثالِث

المتروبوليت سابا (اسبر)

عرفت الكنيسة المسيحية مدرستين تفسيريتين مهمتين؛ مدرسة أنطاكية التي اهتمت بالبعد التاريخي ودلالاته، ومدرسة الإسكندرية التي اتّبعت التأويل والرمز.

تهتم القراءة الأنطاكية بالنص من حيث سياقه التاريخي الذي كُتب فيه ومكانته بين النصوص الأخرى والمقارنة بينها. تأثرت المدرسة الأنطاكية بالفكر الأرسطوي والساميّ، فقام تفسيرها للكتاب المقدس على تاريخية النصوص والمعنى الحرفي لها. مثّل هذه المدرسة تيوذورُس الطرسوسي (+٣٩٤) وثيوذورُس أسقف مصيصة (+٤٢٨) وثيوذوريطُس أسقف قورش (+٤٦٠؟)، والقديس يوحنا الذهبي الفم (+٤٠٧)، وشدّدوا جميعاً على النهج القائل بضرورة احترام الإطار التاريخي الذي نشأت فيه النصوص، طبعاً من دون إنكار اشتمال العهد القديم على رموز كثيرة للمسيح ولأحداث الخلاص. كما تبّنوا النهج الحرفي في التفسير لمعرفة ماذا يريد النص قوله.

ساهم الفكر الساميّ في بلورة نهج المدرسة الأنطاكية هذا. فالفكر الساميّ معروفٌ بابتعاده عن التنظير المفرط ومقاربته الإنسان بوصفه كياناً واحداً. لذا جاء الفكر اللاهوتي الأنطاكي فكراً تجسدياً، شدّد على الإنسان الذي جاء المسيح لخلاصه. كان القديس يوحنا الذهبي الفم يشدد في عظاته التفسيرية على الجانب الخلقي لشعبه.

أما المدرسة الإسكندرية التي مثّلها معلّمون كنسيون كبار مثل إقليمس الإسكندري (+٢١٦) والعلاّمة أوريجنس (+٢٥٤) وغيرهم فقد حمّلت النصّ بُعداً تأويلياً رمزياً. فتأثر معلّموها بالفلسفة الأفلاطونية والنزعة المصرية إلى التأمل والتعالي عن المادة، ما دفع إلى عدم الاكتفاء بالمعنى الحرفي الظاهر والبحث عن معنى رمزي أكثر عمقاً.

إذا أخذنا مَثَل السامري الصالح مثالًا. تهتم المدرسة الأنطاكية بمعرفة العلاقة ما بين السامريين واليهود، فيفهم القارئ أهمية ما قام به ذلك السامري. بينما تهتم المدرسة الإسكندرية بتأويل ما ورد في المثل تأويلاً روحياً صرفاً. فترى، على سبيل المثال، في السامري الصالح صورة المسيح المتحنّن، وفي الدينارين اللذين دفعهما لصاحب الفندق رمزاً للعهدين القديم والجديد.

تكمل المدرستان بعضهما بعضاً. فالنزعة الرمزية التأويلية الإسكندرية قد تجنح إلى الإيغال في التأمل وتالياً إلى تحميل النص ما ليس فيه، فتكملها المدرسة الأنطاكية في تشديدها على النص والواقع، فتحمي التفسير من الشطحات الرمزية. كذلك يكمّل التأمل التأويلي الرمزي الإسكندري النهج الأنطاكي من الإيغال في المعرفة لأجل المعرفة فيحميه تالياً من القراءة العقلية الصرف والابتعاد عن القراءة الروحية.

ثمة تفسير يقوم على اللغة أيضا. ينطلق هذا النوع من التفسير من قراءة النصوص باللغة الأصلية التي كُتبت فيها، ومعرفة مدلولات هذه الألفاظ في ذلك الزمان، فيصبح تأوينها أميناً للتعليم الذي أراده الكاتب آنذاك. عندما يخاطب القديس يوحنا المعمدان الشعب المتجمع حوله بـ "أولاد الأفاعي،" نفهم بالخلفية الدينية التي يتكلّم بها أنّ المقصود هو أولاد الخطيئة، باعتبار الحيّة صورة الشرير المجرِّب في تراث العهد القديم. وعندما نقرأ "لم يعرفها حتى ولدت ابنها البكر" (مت ١: ٢٥) باللغة اليونانية نعرف تلقائياً أن يوسف لم يعرفها حتى حين كتابة إنجيل متى؛ وكانت العذراء ويوسف قد رقدا في الرب آنذاك. ذلك لأن فعل "يعرفها" ورد في الأصل اليوناني في صيغة الماضي المستمر التام، وهي صيغة غير موجودة في اللغة العربية.

كيف تحدّد الكنيسة صحة التفسير؟ بقبول وجدان الكنيسة له وتوافقه مع العقيدة. إذا جاء أي تفسير بما يخالف العقيدة ترفضه الكنيسة وتعتبره تفسيراً شخصياً. جدير بالذكر أنّ الكنيسة الأرثوذكسية تشدّد على أنّ ما قد كُتب بالروح القدس لا يُفهم إلا بالروح القدس. من هنا تلجأ إلى تفاسير الآباء القديسين. وهنا من المهم التفريق بين القديس والقديس المعلّم (الأب). آباء الكنيسة هم علماؤها الذين بلغوا درجة القداسة، فصارت علومهم مطواعة للروح القدس. وهكذا حفظوا لنا التفسير السليم.

بالطبع، الأمر ليس بهذه البساطة، ولكن هذا هو الخيط الدقيق الذي يمسك التفسير الصحيح ويسمح بتنوع التفاسير التي تصبّ في التوافق مع الإيمان المستقيم الرأي.

ثمّة سجال دائم، وسيدوم ما دامت الكنيسة، شعب الله، بشراً يسعون إلى الامتلاء من الروح القدس. إضافة إلى ذلك ثمّة أسئلة وتحدّيات تفسيرية بخصوص بعض نصوص الكتاب المقدس، واجهها الآباء في زمانهم وأدلوا بدلوهم في شأنها. مثل سلسلتي نَسَب

يسوع الواردتين في إنجيلي متى ولوقا وغيرها من النصوص المقارنة. لكن من بعد اكتشاف نصوص الحضارات الشرقية القديمة في أواخر القرن الثامن عشر وما بعده، بدأت تواجه الكنيسة أسئلة لم تواجهها من قبل، كبعض التشابه الموجود بين نصوص الميثولوجيا البابلية والآشورية وغيرها مع رواية الخلق في سفر التكوين، أو أسئلة طرحها العلم الحديث من حيث نشوء الحياة وزمنه والنظريات العلمية العديدة التي تتغيّر من حين إلى آخر، وما إلى ذلك.

فيما يتغذى المؤمنون من الكلمة الإلهية روحياً، كان لا بد للكنيسة من الإجابة على هذه التحدّيات، وتقديم مقاربة عصرية تأخذ بعين الاعتبارات التحديات الموجودة وتحاورها. هذا أوجد مقاربات جديدة علمياً ونقدياً أثارت ولا تزال سجالاً وجدالاً وأحياناً عنفاً معنوياً.

يبقى المؤمنون في إطار استلهامهم التفاسير التراثية على مستوى حياتهم الشخصية. يقرأون الكتاب باعتباره كلمة الله الموجهة لهم شخصياً، فيستخرجون منه"جدداً وعتقاً" لبناء حياتهم الروحية وتقوية صلتهم بالله. وفي الوقت ذاته على المتعلّمين منهم قبول الانفتاح على حوار العالم الذي يعيشون فيه ليكونوا متمكّنين من استعمال لغته وأسلوبه في استمرار البشارة بغية خلاص العالم الذين نحيا فيه، وفهم نصوص الكتاب بشكل أعمق على ضوء ما توفر من علوم مساعدة.

يقول أوليفييه كليمان: "أن ترغب في الكلام عن المسيح اليوم من دون معرفة ماذا عرف أولئك الآخرون (آباء الكنيسة ولاهوتييها الكبار) عنه يبدو لي أنه أمر غير ذي جدوى. لكن أن تعرف ما الذي عرفه الآخرون من دون أن تكون قد التقيت المسيح، لا يعني أنك تقدمت كثيراً (عن الحالة الأولى)" (The Other Sun, page 161).